أدب أواخر المسلمين المجهول في اسبانيا وأدب الموريسكيين

الباروجا لميس دي فوينتيس

يُعدّ عام ١٤٩٢، وهو عام سقوط غرناطة، نهاية التأثير الاسلامي المباشر في اسبانيا. ومع ذلك فإنه حتى بدايات القرن السابع عشر ظل بعض الموريسكيين يعيشون في اسبانيا، وقاموا بنشاط أدبي هام في إطار التبادل الوثيق بينهم وبين الآداب المسيحية، كما سنرى فيما بعد، وقد تم ذلك في الفترة نفسها التي بدأ فيها النشاط الأدبي في العصر الذهبي.

ويعرف أدب هؤلاء المسلمين الأواخر في اسبانيا باسم أدب الموريسكيين والأعاجم أو الأدب الاسباني المكتوب بالخط العربي. وهذا الأدب ـ كما هو معروف ـ هو ذلك المكتوب بلغة الرومانث الاسباني (البرتغالية والقشتالية والأراغوانيةوالقطلانية تبعاً لهذه الأقاليم) وقد قام به بعض الموريسكيين في شبه جزيرة ايبيريا منذ القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر، وقد تبدى الاثنان في الكتابة بخصائصها العربية لا اللاتينية. ويمثل هذا الأدب جانباً كبيراً من الآداب الاسبانية. وهو مجهول يضمه أكثر من مائتي مخطوط لم ينشر معظمها وإنما توجد في مكتبات وطنية وأجنبية.

إن هدفنا الاساسي هنا هو إبراز هذا الأدب وإلقاء الضوء عليه.

حقيقة أننا الآن في يومنا هذا بعيدون عن التقييم الرومانسي للأدب الأعجمي الموريسكي. ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر اكتشفت بعض مؤلفات الموريسكيين وراحت عقلية الرومانسيين تطري هذه المؤلفات وتثني عليها كثيراً، وهذا ما نحن بعيدون عنه الآن. وهكذا فقد تحدث مثلا الكاتب المعروف

سيرافين استيبانيت كالديرون في خطاب إنشاء كرسي اللغة العربية في أتينيو - مدريد يوم ١٢ تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٤٨ قائلاً: «على من سئم الأدب المعاصر أن يفتح الأبواب من طريق اللغة العربية للأدب الأعجمي الموريسكي الذي يعتبر بمثابة اكتشاف اميركا جديدة»[١].

وبعد ذلك يصف استيبانيت مخطوطات الأعاجم والموريسكيين المعروفة في ذلك الحين قائلاً:

«إن دراسة هذا الأدب تعطي مادة كبرى لمن يكتب عن العادات والروائيين الذين يجدون موضوعاً على درجة كبيرة من الجدة تخرجهم من طرق التقليد الفرنسية»[٢].

وبطبيعة الحال لا يمكننا الآن أن نعتبر المخطوطات الموريسكية مصدر إلهام جديد في الأدب. ومن ثم فإن الادب الاعجمي سقط في مهاوي النسيان بعد الاستقبال الحار الذي قابله به الرومانسيون.

ومن حين لآخر فقط اهتم بعض المختصين بهذا الأدب اهتماماً مؤقتاً، ولكن هذه النصوص قيمت دائماً من وجهة النظر اللغوية أو حسب تهويمات خيالية غريبة. ومع ذلك فإن الأدب الموريسكي الاعجمي يقدم لنا أعمالاً أدبية جديرة في حد ذاتها بالإهتمام من وجهة نظر النقد اللغوي والأدبي المعاصرين.

ويكفي أن نذكر بعض الأعمال الأدبية الهامة للموريسكيين لكي نؤكد ما قلناه:

١ - وفي اطار هذه الروايات (الأعجمية) سواء كانت قصصاً أو حكايات أو أساطير، نذكر الكتاب الذي نشره نيكيل «حكاية الملك الاسكندر»[٣]، وفيه يحكون المغامرات الخيالية التي يعزوها المسلمون الى الاسكندر الأكبر، حيث تتحدث الجبال والطيور والأشجار، وتوجد مدن عائمة وأنهار من الاحجار الكريمة.

أما رواية «ندم التعس» التي درسها أوليفر آسين[٤] وفيها قصص واقعية تعكس الحياة الأسبانية في القرن السادس عشر عن طريق عجوز تقود الى الضلال بأسهل الطرق في العالم وتطل بنا على حياة الترف في مدينة كبيرة (من أطعمة ومشاهد غرام، وعشاق ومغازلين على ضفاف نهر الوادي الكبير) وتقدم لنا صور سهرات الرقص والأعياد العامة.

وهناك كتاب قصة العشق في باريس وفيينا[٥]، وهي إحدى قصص الفرسان الناجحة في أوروبا الغربية، وكذلك كتاب الحروب الذي درسته في موضع آخر[٦] وهو مجموعة مؤلفات ملحمية عن الفرسان والفروسية مليئة بالعجائب والغرائب تحكي بأسلوب روائي الغزوات الاسلامية الأولى.

وكتاب أسطورة القصر الذهبي وقصة التنين وعلي بن أبي طالب[٧] وأسطورة علي بن أبي طالب والاربعين جارية[٨]، وكلها كتب ذات صلة وثيقة بكتاب المعارك، وفيها يبدو عصر صدر الاسلام غنياً بعناصر خرافية، حتى تصل الى العصر الموريسكي في القصة الطريفة بعنوان حمام زرياب[٩] التي تدور أحداثها في قرطبة، ولكن أصلها نجده لدى المؤلفين المشرقيين مثل ياقوت الحموي طبقاً لما برهن عليه الاستاذ ميغيل اسين بالاثيوس[١٠]. ولكن المؤلف الموريسكي يتجاوز المؤلف المشرقي دون أدنى شك حين يذكر تفاصيل مشوقة عن الحياة المنزلية لدى الأندلسيين في عصور ازدهار الخلافة حيث تدور الأحداث في عصر

« المنصور ». وفي قصة « أسطورة يوسف » التي درسها ونشرها أرسولاكلينك[١١]، والتي تحكي كما في القصيدة التي تحمل العنوان نفسه قصة يوسف بن يعقوب طبقاً للرواية القرآنية.

وهناك كتاب أسطورة موسى مع يعقوب الجزار[١٢] التي يمكن أن تكون ذات صلة بـ « المدان لانعدام الثقة » لتيرسو دي مولينا، طبقاً لما ذكره رامون مينينديث بيدال[١٣]. وكتاب « أسطورة الصديقين »[١٤] ذات الأصل الشرقي، وهي قصة نجدها في رواية « الدكاميرون » لبوكاتشو. وكتاب « أسطورة الجارتر أركايونا »[١٥] التي تقص الموضوع التقليدي عن الفتاة البريئة التي اتهمت ظلماً وعدواناً، فقطعت يداها وسيقت الى غابة لتقتل وتفنى هناك.

وكتاب « أسطورة العرب وجارتر »[١٦] التي تحكي قصة محزنة لفتاة كان يجب أن تذبح عقب ولادتها طبقاً لطقوس السيف، ولكنها نجت بشفقة أبيها، ولكن جدها ذبحها في غابة أمام أبويها الوثنيين ثم أحياها محمد أمام أبويها اللذين ما لبثا أن أسلما حينما رأيا هذا. وكتاب « حكاية تميم الدهر »[١٧] صاحب النبي الذي قام برحلة الى عالم الجن، ثم عاد الى عالمنا ليشرح لنا كيف يعيشون. وهي حكاية تبدو من أجمل قصص « ألف ليلة وليلة ». وكتاب « تاريخ من مدينة اللاتين والكانكامو »[١٨] الذي اعتمد أساساً على قصة معروفة من « ألف ليلة وليلة ». وكتاب « قصة معجزة القمر »[١٩] التي تحكي معجزة النبي محمد الذي يقف في حضرة الملك حبيب ويجعل القمر يختفي ثم يعود الى الظهور، ويجعله يهبط ويحج الى الكعبة ويطوف حولها سبع مرات، ويدخل من أحد كمي النبي ويخرج من الآخر... الخ.

وكتاب « قصة المسيح الدجال ويوم الحساب »[٢٠] التي يضمها كتاب السمرقندي الذي يقوم بتحقيقه ويعده للنشر مع دراسة له م. مانثاناريس دي ثيدري[٢١] والذي يحكي القصة طبقاً للتفسير الاسلامي للمسيح الدجال الذي يظهر يوم الحساب ليغوي الناس قبل يوم القيامة ونهاية الحياة الدنيا.

٢ ـ أدب المعراج:

بهذه الأسطورة على وجه التحديد ندخل في موضوع كبير من الأدب الأعجمي، وهو الدائر حول المعراج. وهناك مؤلفات كثيرة في هذا الصدد تجمع المعتقدات الاسلامية حول هذا الموضوع مضافاً إليها إسهابات موريسكية تشير الى الحياة الآخرة.

لنذكر في هذا الصدد قصة « يوم الحساب » التي تكررت في مخطوطات كثيرة[٢٢] والتي تصف لنا طريقي الجنة والنار أو قصة الإسراء بمحمد (ﷺ) والمعراج الى السماوات وهي قصة شائعة ذائعة مليئة بالخيال غاية في الجمال والشاعرية[٢٣] وفيها يصعد النبي على البراق مخترقاً السماوات سماء الى سماء ويرى بعينيه كيف ينكشف الحجاب عن وجه الله ويشعر على كتفيه بيدي الله عندما يسجد لجلاله.

٣ ـ حكايات حول اشخاص من الانجيل:

وفي إطار الادب الاعجمي توجد سلسلة من الحكايات التي تدور حول شخصيات إنجيلية حسب تناولها

في القرآن الكريم، مضافاً اليها ما زاده الموريسكيون. ومن هذه القصص نذكر «اسطورة إبراهيم»[٢٤] و«قصة تضحية اسماعيل»[٢٥] و«تعاليم موسى»[٢٦] وأسطورة «موسى مع الحمامة والصقر»[٢٧] و«موت موسى»[٢٨] و«قصة أيوب»[٢٩] و«حكاية سليمان»[٣٠] وحكايات شتى وأساطير حول حياة المسيح[٣١] «ميلاد عيسى»[٣٢] و«قصة عيسى وابن العجوز»[٣٣] «عيسى والجمجمة»[٣٤] و«قصة حدثت في عصر عيسى»[٣٥] و«عيسى يحيي سام بن نوح»[٣٦] و«قصة الملك عيسى»[٣٧].. الخ.

٤ ـ الأدب الذي يدور حول النبي محمد وأوائل الصحابة

وثمة قصص تدور حول حياة النبي محمد أو بعض صحابته الطاهرين مثل كتاب «الأضواء»[٣٨] عن عبقرية النبي وحياته، و«قصة محمد»[٣٩] و«حكاية وفاة محمد المختار»[٤٠] وأسطورة «الضب الذي حدّث محمداً»[٤١] وأسطورة «موت بلال بن رباح مؤذن الرسول»[٤٢] وأسطورة «إسلام عمر»[٤٣] وحكاية «ابن عمر مع اليهود»[٤٤] وأسطورة «سلمان الفارسي»[٤٥] كل هذه الحكايات والتي سبقتها تمثل التاريخ الديني للموريسكيين.

٥ ـ أدب الرحلات

يتمثل أدب الرحلات أيضاً في مؤلفات الموريسكيين، ولئلا يطول بنا الحديث فسوف نذكر هنا عملين يوجدان في مخطوط بمكتبة باريس الوطنية[٤٦] «الطريق من اسبانيا الى تركيا» وبخاصة تلك التوجيهات الرقيقة للمسافرين التي تضم ما يجب أن يتزود به المسافر وحديثاً عن الأماكن الصعبة، والأماكن الخطرة، أو تلك التي يُرحب أهلها بالموريسكيين وعلى العكس من ذلك، ويصف المدن التي يمكن أن تغيّر فيها العمله، والموانىء التي يجب عليه أن يستريح فيها أو يقلع منها.. الخ.

والاستاذ ميكيل دي ايبالثا يعدّ الآن للنشر حكايتين هامتين من حكايات الحجاج[٤٧] ضمن نوع الأدب العربي المسمّى «أدب الرحلات». وتقص الحكاية الاولى قصة حاج موريسكي من طرطوشة الى مكة، وأثناء رحلته قبض عليه المسيحيون وحملوه الى ميتيليني ثم الى مايوركا حيث تمكّن بعض الموريسكيين من إنقاذة وكانوا من مدينة الاراغونة ثم أعادوه الى أرضه في طركونة ولاردة[٤٨].

٦ ـ النثر التعليمي

وأهم من كل ما ذكرناه ما سوف نتعرّض له بالذكر هنا وهو «النثر التعليمي» الذي يتكوّن من سلسلة من المؤلفات الهامة التي تحاول هداية القاريء الى السبيل المستقيم والسلوك القويم مثل «عقاب علي»[٤٩] و«تعاليم الحكيم الى ابنه»[٥٠] و«عقوبات بني آدم»[٥١] و«كتاب العقائد السليمة والعقوبات الأليمة والعادات الطيبة»[٥٢]. او تلك المؤلفات الرائعة المكتوبة بأسلوب العصور الوسطى مثل تلك التي تحمل عنوان «كتاب الأمثال» والعقائد التي تشفي الروح وتجنّب فيها الحياة الآخرة وتزهد في هذه الدنيا[٥٣] أو «عقاب الناس»[٥٤] الذي يبدأ بالكلمات التالية «هذا كتاب عظات وعقوبات وأمثلة للناس».

٧ ـ كتب الخرافات

لقد كان الموريسكيون بحكم كونهم شعباً مغلوباً على أمره يعجبهم نوع من المؤلفات يفتح لهم أبواب الأمل في الفرج والخروج من موقفهم التعس. وكان البعض مثل واحد من أشهر المهاجرين الى افريقيا وهو الشاعر خوان الفونسو الذي كان يصرح ضد الاسبان قائلاً:

«أيها الغراب الاسباني اللعين
أيها الكلب القذر
أنت برؤوسك الثلاثة
على باب جهنم»(٥٥)

وكانوا يسمون اسبانيا كذلك «مخلفة كل الوعود التي قطعتها على نفسها». وكانوا يصفون رجال الكنيسة بأنهم «ذئاب يسرقون دون مداراة، ومهنتهم الكبرياء والعجرفة والفسق والفجور والالحاد والانكار والترف والطغيان والظلم». ويقول موريسكي آخر دونما تصريح واضح:

«لقد نام الحق
وسهرت الخيانة
وغابت العدالة
وسيطر الشر»(٥٦).

وقد ألّف أحد المطرودين الى تونس هذه السوناتا التي يمكن أن توضع بجدارة الى جانب أدب المرموقين في العصر الذهبي:

«يا رب انظر الى عبادك بشفقة المعذبين
تر الميت في الحياة وفي الجسد النيران
لخطيئة آباء لا حكومة لهم
أو بسبب قضية تحيق بهم
ارفع سيف غضبك الحاد
وكخالق وعاشق رقيق
لست بكونك خالداً في الانتقام خالدا
ارفع الى الراحة التقاة
ورقق قلب فرعون اسبانيا
واعطه على غمه طريقاً في البحر
ذا مروج خضراء مزهرة
وامنح العبقري المهاجر

ضياء الله الذي يجعله
أزلياً بين البشر الفانين
إن لم يكن إلهياً »[٥٧].

ولكي يصلحوا الشرور الكثيرة المحدقة بهم، كانوا يرون في اندفاع الاسلحة التركية التي كانت تهدد أوروبا في القرن السادس عشر،التحرر من موقفهم. وقد استخدموا في ذلك بعض النبوءات التي تعزى الى القديس ايسيدرو والتي كانت شائعة في قشتالة في ذلك القرن. وكانت هذه النبوءات تعلن تدمير اسبانيا على يد الأتراك. ولكي يكشفوا أسرار الحياة اليومية ويتنبأوا بالنكبات اليومية، أشاعوا بين الموريسكيين كتباً تدور حول الخرافات والمعتقدات الشعبية مثل كتاب « الأقوال العجيبة »[٥٨] وهو كتاب غريب يضم مجموعة مذهلة من الوصفات السحرية والشعوذات والتخرصات وتطبيق هذه الخرافات على كل نوع منها وذلك لعدة أهداف. « وكتاب الحظوظ »[٥٩] الذي يشرح فيه الوسيلة التي يمكن بها تقصي النتيجة سواء كانت سارة أو سيئة في أي أمر من الأمور يكون الانسان على وشك البدء فيه. وكتاب « ذو القرنين »[٦٠] وهو كتاب تنبؤات. وكذلك « كتاب الاحلام »[٦١] وهو ضرب من التفاؤل بالاحلام مضاف اليه أنواع شتى من التعاويذ[٦٢] والتخمينات بحكاية الاسماء[٦٣] والوسائل التي تتخذ ضد كوارث الطبيعة[٦٤] [٦٥].

٨ ـ أدب الزهد والتصوّف

ولم يكن الموريسكيون وحدهم الذين يمارسون طقوس هذه الخرافات والاباطيل. فقد كان اختلاف الدين الذي يفصل المسيحيين الاسبان ويفرّقهم عن الموريسكيين سبباً في نشأة أدب غزير يقوم على الجدل المضاد للمسيحيين واليهود[٦٦] درسه دينيس ولوس كاردايئيا[٦٧]. ولكي تبقى شعلة الايمان متقدة، كتبوا عدة مؤلفات حول العقيدة ومبادىء الدين الاسلامي، متبعين بصفة عامة مذهب الامام مالك السلفي[٦٨] الذي سيطر على افريقيا والاندلس أو اسبانيا الاسلامية. ولكن ذلك لا يعني أن مذهب الامام أبي حنيفة لم يكن معروفاً[٦٩]، وهو المذهب الذي فضله الاتراك والذي كان أكثر اعتماداً على العقل.

وقد ساد الاتجاه الروحي لدى الموريسكيين فعرفوا الزهد والتصوّف. مثال على ذلك كتابات الموريسكي الشهير باسم « فتى أريبالو » الذي تُعَدُّ أعماله وهي التفسير[٧٠] أو شرح الفرائض والاحاديث الاسلامية و« خلاصة العلاوة والممارسة الروحية »[٧١] طبقاً لمذهب الامام الغزالي وغيره من المتصوّفين المسلمين، تعدُّ ذات أهمية بالغة لمعرفة تاريخ الموريسكيين ومعتقداتهم الدينية خلال القرن السادس عشر.

٩ ـ الكتابات الفقهية

لم يكن الدين والفقه منفصلين في المجتمع الاسلامي مثلما يبيّنه لنا تفسير « فتى أريبالو ». ومع ذلك فإن الكتابات الفقهية توجد ممثلة في كتابات العقود والسجلات التي نتبيّن منها بعض المعاملات الفقهية التي قام بها عدد من الموريسكيين (كالبيع والشراء والقرض والايجار والميراث وعقود الزواج... الخ).

وقد نشرت هذه الكتابات بتحقيق ودراسة هوينيريل[٧٢] وهي انعكاسات للحياة المدنية الحقيقية للموريسكيين. ومنها أيضاً قانون المسلمين الذي نشره جايانجوس[٧٣] و« التورية لابن جلاب » الذي يضم القواعد القانونية بكل دقة.

١٠ ـ الشعر

وبالإضافة الى هذا الكم الهائل من الكتابات النثرية، نجد في النشاط الثقافي للموريسكيين شعراً في القرن الرابع عشر يقدم لنا خير نماذج الأدب الاعجمي، كقصيدة يوسف التي تحكي قصة يوسف طبقاً لما وردت في القرآن الكريم. وقد نشرها وحللها بالتفصيل رامون مينيديث بيدال[٧٤][٧٥].

وبعض فقرات هذه القصيدة لا تقل من ناحية الجودة الشعرية عن شعر بيرثيو أو غيره من مؤلفي ميستير دي كليريثيا. فعندما يتمكن إخوة يوسف من الحصول على إذن الأب لهم لكي يأخذوه معهم يقول الشاعر مثلاً:

« لكثرة ما قالوه من كلمات التقوى
ولكثرة ما وعدوه بكلمات معسولة
رضي يعقوب واعطاهم الطفل وحدد لهم ساعات العودة
ودعا الله ألا يوقعه في أيدي الخادعين »[٧٦].

وفي القرن نفسه الذي ظهرت « قصيدة يوسف » ظهرت قصيدة مدح النبي محمد وهي تبدأ مدح الرسول بأبيات مقتبسة من القرآن الكريم[٧٧].

وقد عرفت لهذه المدحة النبوية عدة شروح شعرية تصل الى (١٦٠٣) بقصة السلالة المحمدية أو نسب الرسول عليه الصلاة والسلام، للشاعر الموريسكي الشهير محمد رمضان الذي ولد في منطقة رويدادل ريوفالون وفيها يقدم صياغة حرة للمؤلَّف الذي كتبه بالعربية أبو الحسن البصري.

ويبدو إلهام الشاعر حين يستخدم مثلاً الألوان الفنية، وعندما هبط جبريل على ابراهيم عليه السلام يقول:

« أنا الذي يخشى اسمي
كل من ينطقون باسمي
من الاراضي المنخفضة
حتى الابراج العالية الشاهقة
أنا من لا يشعر أحد
بعواطفي المرّة
أساوي بين الجميع

كباراً وصغارا
من أبسط فلاح
الى أنبل امبراطور
ومن أعلى ملك
الى الرعاة البسطاء
أنا المرقب الوحيد
لا يخفى على بصري
مخلوق ذو روح
ولا أي شيء به حياة
أنا من يفني الجيوش الجرارة »[٧٨].

وفي الفترة عينها ظهرت قصة الحج الى مكة بعنوان « ترنيمات حاج » نشرها ماريانو بانو[٧٩] وهناك شاعر موريسكي شهير هو محمد الطرطوش الذي بقي له ذكر في أشعار بايدنا، وقد أجاب شاعرنا على سؤال وجّهه اليه فيرّان سانشيث كالافيرا حول الجبرية فقال:

« الله عادل له نهاية
وخالق عدالة عادلة
وقديس لا يرضى الشر
إذن كيف سيحاكمنا، إذا كان هو قد أمر بذلك؟
أو أن هذا هو ما صنعه
الانبياء المطهرون الذين أرسلهم الى العالمين
ويقال أن الله لم يرد أبدا
أي انسان خلقه
ولا شك إذن في أن الله عادل »[٨٠].

وثمة شعراء موريسكيون آخرون مثل الشاعر الذي ذكرناه من قبل خوان ألفونسو والشاعر ابراهيم ابو الفضل الذي عاش في الجزائر. « وأصيب بعمى البصر، لكنه يستضيء بنور البصيرة »[٨١]، وهو يقول في مطلع مخطوطة حول وجود الله سبحانه وتعالى!

« الدليل على وجود الله في القوة
يوجد في المخلوق
والألوان والأزمان والموت
مثل حياة الانسان

فنحن نرى في مخلوقاته
أنه لا سبب بدون مُسبّب
حيث نفهم بوضوح
أن هذا الكائن
لا بد له من صانع »[٨٢].

وتوضح لنا الأبيات التالية هذه المشكلة الصعبة:

« إذن فالله المختار أعطاك
بالرغم من انه لم يعطك إطلاقاً
فقد خلقك بالعقل
ومنحك طبيعة ممتازة
ليرى الى أي الامرين تميل
وأيهما يبدو لك مناسباً
لتستمتع بحياة أزلية خالدة في الجنة
أو لتعاقب بالخلود بالنار »[٨٣]

وهناك بعض القصائد مجهولة المؤلف تستحق الذكر هنا. وهي مقطوعات في إطراء الدين الاسلامي[٨٤] وهي مزيج من اللغتين العربية والاسبانية:

« الله يا ربي
يا محمد دا ربي
يا بيرداديرو النبي
دي عربي دي عربي
انه الله وحده رب الكون
لا مثيل له ومحمد رسوله
كله حق
والاسلام-ديني
الله يا ربي
يا محمد دا ربي
يا بيراداديرو النبي
دي عربي دي عربي »

أو تلك الحكم المذكورة تحت عنوان « أقوال الحكماء » وهي تنسب الى حكماء الاغريق.

أما فيما يتعلق بلغة الكتابات الموريسكية فإن أسلوبها التقليدي يضفي عليها دون أدنى شك سحراً خاصاً. فقد شاع كل الادب الاعجمي الموريسكي وانتشر بين الشعب عن طريق التأليف الجماعي الذي لا ينسب فيه الادب الى أحد، مما يعيد صياغة هذه المؤلفات والتغير الدائم فيها وما يضفي عليها المؤلفون من أسلوب جماعي مجهول يذوب في ضمير الجماعة.

وفي إطار هذا الاسلوب التقليدي فإن صيغة هذا الادب هي بالفعل بدائية. ولكن هذا لا يعني أنها أقل مرونة وتعبيراً. ولا نجد في هذا الأدب بالفعل ذلك التنوع الاسلوبي أو التعقيد الذي يوجد في المؤلفات العلمية، ولكن البساطة الواضحة هي أهم ما يجذبنا اليه.

نستخلص مما حللناه حتى الآن أن باستطاعتنا أن نقول ان الأدب الاعجمي يمثّل كماً هائلاً في حد ذاته يجب الاهتمام به، ولكنه بالاضافة الى ذلك ليس نسيج وحده، فقد عرف الموريسكيون الأدب المسيحي واستخدموه، كما أن هؤلاء لم يبقوا بمعزل عن أدب أولئك. وقد رأينا في بداية هذه الدراسة كيف أن قصة العشق في باريس وفيينا تعيد إنشاء إحدى روايات الفروسية الناجحة الشائعة في أوروبا الغربية، وكيف أن الرواية المعنونة « ندم التمس » مليئة بذكر الأدب الاسباني في العصر الذهبي، وأن أقوال الحكماء توجد في التراث الغربي في « أقوال الحكماء » الفرنسية أو أقوال الحكماء الاسبان.

إن مجرد قراءة الأمثال التي تعزى الى الحكماء الاغريقيين توضح لنا مصدرها الغربي. وها هي بعض الأمثال:

« انظر الى نفسك كل يوم
وابعث الحياة في المرآة
خذ مني هذه النصيحة
إذا حكمت بأنك جميل
دون أن يبدو عليك الهم
فشابهتك أعمالك
إذا عاملت أبويك
معاملة حسنة أو سيئة
عاملك اولادك بالمثل
إذا كانت لديك ثروة
تشتري بها معاطف
فاكسب بها أصدقاء »

وفي الأدب الاسباني مؤلّفان مجهولان يضمّان أمثالا نسبت الى الحكماء يوجد أحدهما مخطوطاً في مكتبة القصر الملكي بمدريد تحت رقم ١٠٥، أما المؤلّف الثاني فيوجد مخطوطاً بالاسكوريال بعنوان « أقوال الحكماء

والفلاسفة ».

وظل هذا الأدب حياً ليس فقط بين الموريسكيين، ففي القرن السادس عشر ذكر بيدرو دي ميخيا في كتابه «عدة دراسات» (الجزء الرابع، الفصل السادس) بعض هذه الحكم والامثال التي يضمها المؤلّف الموريسكي ذكرها بطريقة نثرية.

ومن جهة أخرى فقد ذكرنا أن الاسطورة الاعجمية ليوسف الجزار لها علاقة «بالمدان لعدم الثقة» لتيرسو دي مولينا، طبقاً لما أشار اليه مينينديث بيدال. وتعيد لنا أسطورة الاميرة أركايونا الموضوع المشرقي الاصل الذي يدور حول الفتاة البريئة التي اتهمت كذباً وبهتانا ونفيت في غابة، وهو موضوع ذاعت شهرته في الآداب الرومانية.

وفي الأدب اللاتيني في العصور الوسطى تظهر الفتاة التي ليس لها بداية في كتاب «أيافيتابريمي» الذي يوجد في مخطوط يرجع الى القرن الثاني عشر أو النصف الاول من القرن الثالث عشر كتب في انجلترا وربما كان مؤلفه ماثايوس ياريسينيس.. وقد انتقلت هذه الموضوعات بعد ذلك الى القصائد الروائية الفرنسية مثل «ماكير» التي ترجع الى القرن السابع، وبطلتها زوجة كارلوس الاكبر (سيبيلي أو الزهرة البيضاء) وهذه القصة دون أدنى شك أقدم الاغاني التي تدور حول هذا الموضوع. ويبدو أن هذه القصة أو الاسطورة قد أفادت كنموذج يحتذى مؤلف «الدوقة باريس» التي أوحت بكتابة حكايات أخرى (من بينها حكاية النفس في الغابة) مثل (فلورنسة روما) و(كونت بوليتيبر).

ويعود أدنيه لي روا في مؤلفه «بيرت بين الاقدام الكبيرة» الى الأسطورة التي تبدو أخيراً في الرواية الفرنسية «تريستان».

والادب التعليمي الذي يدور حول العقاب والأمثولة أدب غزير في كتابات الاعاجم ذو علاقة وطيدة بالأدب الذي يحتذي أسلوب العصور الوسطى التي توافينا بكتب كثيرة مثل كتاب «الحكم الطيبة» و«تعاليم الاسكندر وعقوباته» «ووثائق للحياة الحسنة» (وهي التعاليم التي أعطاها سانشو الرابع ملك قشتاله لابنه) و«مشورة، ومستشار والامراء» وهو عمل ينسب الى بيدرو غوميث دي البورنوث، كاردينال اشبيلية وأسقفها في النصف الثاني للقرن الرابع عشر، وكتاب «حديقة الجواري الحسان» الذي طبع في بورجوس عام ١٥٠٠، ومؤلفه هو الأب مارتين القرطبي، أو كتاب «التعاليم والعقوبات التي هذب بها حكيم ابنته» وهو مجهول المؤلف طبقاً لما اعتقده كنوست، وهناك عدد لا يحصى من هذه النماذج التي شاعت في العصور الوسطى في اسبانيا.

وتصوف القديس خوان دي لاكروث، الذي درس مصادره ميغيل آسين، ذو علاقة بالكتابات الدينية الموريسكية وبخاصة مؤلفات «فتى أريبالو» معاصر شاعر أوبييدو الذي نشأ على الارض نفسها وكانت له علاقات صوفية تشبه علاقة القديس خوان دي لاكروث بالقديسة تيريسا- مع ولية عرفت باسم مسلمة أوبيدا وهي المدينة التي مر بها شاعرنا الموريسكي لزيارتها وقد عاش ومات فيها القديس خوان دي لاكروث[٨٥].

وفي أوبيرا وأريبالو ومدينة وباسترانا وشلمنقة وغرناطة والقلعة وشقوبية وآبلة وطليطلة، أي في جميع القرى والمدن التي كانت مسرح حياة القديس خوان دي لاكروث، تدلنا احصائيات القرن السابع عشر على أن ثمة بعض التجمعات الموريسكية التي لا زالت حية حتى ذلك الحين.

ومن جهة أخرى، فلكون الشاعر غوميث أينور مسيحياً، فإننا في كتابه «نسب القديسة تريسا والقديس خوان دي لاكروث»[٨٦] نشك في انعدام الاصل الموريسكي للقديس خوان دي لاكروث، ذلك لأن أمة كاتالينا الباريث التي عارض أقارب زوجها زواجه بها كان من الممكن أن تكون من أصل موريسكي مما يؤكد قرابة القديس خوان دي لاكروث الى الموريسكيين.

وأخيراً فإن ملاحم الاعاجم الاسطورية في كتاب المعارك تفتح أمامنا الطرق لفهم بعض مظاهر تأثير الحكايات العربية في الملاحم الرومانية.

وقد أبرزتُ ـ بدءاً بكتاب المعارك ـ العلاقة بين الحكايات العربية والملحمة الاسبانية، فوجدت خصائص عامة تجمع بين النوعين مثل استدعاء البطل لذاته نفسها، وكثرة الوعود والايمان والاسماء الخاصة بالاسلحة وحيل الحروب ومكائدها، ومشاركة المرأة في المعارك وتصور الجهاد أو الحرب المقدسة وظهور الملاك جبريل وزجر الطير والبكاء على الرؤوس المقطوعة.. الخ[٨٧].

ولكن تأثير الحكايات العربية لا يقتصر فقط على الملاحم الاسبانية بل يشمل أيضاً الملحمة الفرنسية.

وهكذا فإن اسم السيفين الشهيرين في أغنية رولان أو (شانسون دي رولان) لا يمثل أمراً غريباً فسيف الاسقف «توربان» هو ألماس وسيف البطل في(شانسون دي رولان)هو «دوراندال» وهما من أصل عربي كما حاولنا أن نبرهن على ذلك في بحثنا السابق[٨٨]. واسم سيف الاسقف هو الكلمة العربية «ألماس» ومن السهل أن يطلق هذا الاسم على سيف ربما لأنه كان مزيّناً بالماس كعادة هذا العصر أو ربما استخدمت هذه التسمية لابراز القوة في السيف بصورة استعارية. أما بالنسبة الى سيف رولان فنظن أنها تقع ضمن سلسلة الكلمات التي تحمل أداة الملكية في اللغة العربية «ذو» التي يمكن أن يحملها أي اسم أو لقب مثل «ذو الفكر» واسم سيف علي ذو الفقار وذو الحيات اسم سيف البطل عنترة.. الخ، وبصفة عامة فإن الاصل العربي لاسم سيف «رولان» يمكن أن يكون «ذو الانذار» مع التأخير والتقديم الذي حدث بين اللام والراء، ويمكن الاشارة الى بعض المعلومات حول السيف «دوراندال» تؤكد الجو الاسباني العربي الذي نشأت فيه الكلمة وتكوّنت بصورة أدبية. فمثلما حدث في شانسون دي رولان، نجد في قصة عنترة العربية أن البطل حرثيت الزليم عندما يقع جريحاً جرح الموت يحاول أن يحطم سيف «ذو الحيات» في صخرة ليتحاشى أن يقع في أيدي أعدائه ولكن الصخرة تنشق بينما يبقى السيف سليماً دون أن يمسه سوء. ويمكننا أن نعتقد بأن الدافع الموضوعي في قصة عنترة وقصة (شانسون دي رولان) ثمرة تعدد أصول الموضوعات. ومع ذلك فهناك قرابة بعيدة ذات مغزى تحملنا على التفكير في اعتماد (شانسون دي رولان) على نموذج عربي، ففي الـ (شانسون) يحاول البطل أن يحطم سيفه ضارباً به الصخرة، وهي صخرة من اليشب الأحمر لا توجد في جبال البيرينيس

حيث تدور الاحداث ولكنها على العكس تكثر في الصحراء العربية. وأخيراً يمكننا أن نؤكد أيضاً اشتقاق كلمة «لاراندال» الذي تحدثنا عنه ليكون المعنى «مالك الخصائص اللامعة» بما فعله رولان حينما رأى استحالة تحطيم سيفه فتوجه اليه كما لو كان يعرف معنى اسمه الذي يعني الصافي، الابيض، اللامع، بينما كان الاولى به أن يتحدث عن شدته التي جرب بها في هذه الحالة.

والآن ما هي العلاقة التي توجد بين الكتابات الاعجمية الموريسكية في القرن الخامس عشر فالقرن السابع عشر والملحمة الرومانية في العصور الوسطى؟

وللإجابة عن هذا السؤال نبرز إحدى خصائص الأدب الاعجمي التي تعطيه أهمية في نظر دارسي الآداب العربية والرومانية. لقد غضّ الباحثون المسلمون والمستشرقون الغربيون الطرف دائماً عن نمط من الأدب التقليدي واحتقروه في مواجهة الأدب الرفيع، ومع ذلك فقد التقط الموريسكيون هذه المظاهر الأدبية التي لا زالت حية في الاسواق والمجالس والسهرات الليلية، ونحن نعرف عن طريق ابن بسام أن السيد القمبيطور بطل الملحمة الاسبانية الحافلة بالمآثر والبطولات لم يكن يستمع في بلاطه شبه العربي الى رواة الرومانث والقساوسة الذين يتغنون باللاتين فقط، بل كان يستمع ايضاً الى الأدباء المسلمين أو الرواة العرب. ويحكي لنا ابن بسّام كذلك أن السيد كان يشعر بالحماسة لدى الاستماع الى الأدب الملحمي والرواة العرب. يقول ابن بسّام:

«يحكى أنه في حضرة السيد القمبيطور كانت تدرس الكتب، فكانت تقرأ عليه أعمال وبطولات شجعان العرب القدماء، وعندما استمع الى قصة «المهلب» أبدى انتشاءه وإعجابه بهذا البطل».

ولا نعرف على وجه الدقة النصوص الملحمية الاسطورية التي يشير اليها ابن بسّام وعلاقتها التي لا شك فيها بنوع الشعر والمغازي، وعلى أية حال فإن الأدب الأعجمي يحتفظ لنا بنص روائي عن «مآثر شجعان العرب القدماء» الذي يمكن أن يكون شبيهاً بالرواية التي يذكرها ابن بسّام.

وهذا الأدب العربي ذو الطابع التقليدي الذي اختفى من الرواية الشفوية يعود الى الظهور في كتابات الموريسكيين التي تبدو لنا ـ في هذا المصدر ـ كنزاً أدبياً فريداً من نوعه كصدى للعادات القديمة وتراث الجاهلية وعصر صدر الاسلام.

الحواشي

١ ـ نشر في «سيمينارو بينتو ريسكو اسبانيول» رقم ٤٦ صفحة ٤٦٥.
هذه الفقرة وغيرها من النقول التالية جمعها م. مانثاناريس دي ثيرّي من المستشرقين الاسبان في القرن التاسع عشر. مدريد ١٩٧٢ صفحة ١١٦

٢ ـ خطبة، صفحة ٣٦٧.

٣ ـ خلاصة الأدب الاعجمي في مجلة «ريفي ايسبانيك» المجلد ٢٧، السنة ١٩٢٠). صفحات ٤٠٩ ـ ٦١١.

٤ - موريسكي في تونس معجب بلوب دي فيجا من مجلة «الاندلس» ١/١٩٣٣. صفحات ٤٠٩ - ٤٥٠.
٥ - جاليس «مجموعة الأدب الاسباني الاعجمي الموريسكي» المجلد ١/مدريد جريدوس ١٩٧٠.
٦ - جاليس دي فوينتيس «كتاب المعارك» (روايات الفروسية الموريسكية الأعجمية) جامعة أوبييدو ١٩٦٧.
انظر الآن جاليس دي فوينتيس «كتاب المعارك» كليم، الجزء الأول. نشر النص وتحقيق ودراسة أدبية الجزء الثاني، دراسة لغوية، مدريد، جريدوس ١٩٧٥.
٧ - مخطوط في مكتبة القصر بمدريد، مادة ٣٢٢٦.
٨ - مخطوط بالمجمع الملكي للتاريخ. جاي، ت١٨٠.
٩ - مخطوط بالمجمع الملكي للتاريخ. جاي، ٦، ومدرسة الدراسات العربية، رقم ١٤٢٤.
١٠ - ميغيل آسين بالاثيوس: الاصل العربي للرواية الأعجمية «حمام زرياب» في كتاب تكريم لينينديث بيدال» الجزء الأول ١٩٢٤، صفحات ٣٧٧ - ٣٨٨.
١١ - أسطورة يوسف «مخطوطات فقه اللغة الرومانية» ١٣٤.
١٢ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٥٣٠٥.
١٣ - اسبانيا وتاريخها، المجلد الثاني - مدريد رقم ١٩٥٧ صفحة ٤٣١ وما يليها.
١٤ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد رقم ٥٣٠١.
١٥ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد رقم ٥٣١٣، ٩٠٦٧.
١٦ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد رقم ٤٩٥٣.
١٧ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد رقم ٤٩٥٣.
١٨ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد رقم ٥٣٠٥.
١٩ - مخطوط بالمجمع الملكي للتاريخ. ت١٨٠
٢٠ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٤٨٧١.
٢١ - سوف ينشر هذا العمل في كليم.
٢٢ - مخطوط بالمكتبة الوطنية - باريس ٢٩٠.
٢٣ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٥٠٥٣.
٢٤ - مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٥٣١٣.
٢٥ - مخطوط بالمجمع الملكي للتاريخ. ت١٨٠.
٢٦ - مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٥٢٢٣.
٢٧ - مخطوط بالمجمع الملكي للتاريخ. ت١٩٠.
٢٨ - المكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٥٢٢٣.
٢٩ - المكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٥٣٠٥.
٣٠ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٣٠٥.
٣١ - مكتبة المجمع الملكي للتاريخ. س٢٠
٣٢ - مكتبة المجمع الملكي للتاريخ. س١٠
٣٣ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٣١٣.
٣٤ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٢٢٣.
٣٥ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٣٠٥.
٣٦ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٢٢٣.
٣٧ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٩٠٦٧.
٣٨ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٤٩٥٥.
٣٩ - مكتبة المجمع الملكي للتاريخ. ت١٢٠.

٤٠ - مكتبة المجمع الملكي للتاريخ. ت ١٨٠.
٤١ - مكتبة المجمع الملكي للتاريخ. ت١٢٠
٤٢ - مكتبة المجمع الملكي للتاريخ. ت١٠
٤٣ - المكتبة الوطنية بباريس. أر رقم ٢٦٣
٤٤ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٦٠١٦
٤٥ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٣١٣.
٤٦ - المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢٩٠.
٤٧ - كلا النصين أخذ من الدوق دي جدر ويتلكه بارتدلدمر مارس.
٤٨ - انظر ميكيل دي ابالث (قصتان موريسكيتان باللغتين العربية والاسبانية) من رحلات الى الشرق (١٣٩٥، ١٤٠٧، ١٤١٢) مدريد، المعهد الاسباني العربي للثقافة.
٤٩ - مكتبة المجمع الملكي للتاريخ. ت١٣٠
٥٠ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٣١٣
٥١ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٢٢٣
٥٢ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٢٦٧
٥٣ - مخطوط بمدرسة الدراسات العربية. رقم ١٠٣
٥٤ - مخطوط بمدرسة الدراسات العربية. رقم ٨
٥٥ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٩٠٦٧
٥٦ - مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٩٠٦٧
٥٧ - مخطوط بالمجمع الملكي للتاريخ. س٢٠.
٥٨ - مخطوط بمدرسة الدراسات العربية. رقم ٢٢
٥٩ - مخطوط بمدرسة الدراسات العربية. رقم ٢٢
٦٠ - مخطوط بمدرسة الدراسات العربية، رقم ٢٢
٦١ - مكتبة المجمع الملكي للتاريخ. ت١٩٠.
٦٢ - مكتبة المجمع الملكي للتاريخ. ت١٩٠.
٦٣ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٤٩٣٧
٦٤ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٤٩٣٧
٦٥ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٥٣١٣
٦٦ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ١٧٣
٦٧ - انظر الآن كارداياك «الموريسكيون والمسيحيون: مجابهة جدلية»(١٤٩٢ - ١٦٤٠) باريس ١٩٧٧
٦٨ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٩٥٣٤.
٦٩ - المكتبة الوطنية بمدريد. رقم ٩٦٥٤
٧٠ - مدرسة الدراسات العربية. رقم ١٢٢
٧١ - المكتبة الوطنية بمدريد. س٢٤٥.
٧٢ - هوينيريل بون ١٩٦٥.
٧٣ - «ذكريات تاريخية اسبانية». المجلد الخامس، مدريد ١٨٥٣. صفحات ١١ - ٢٤٦.
٧٤ - «قصيدة يوسف». الطبعة الثانية، جامعة غرناطة ١٩٥٢.
٧٥ - العمل المذكور صفحات ٥٢ - ٥٣.
٧٦ - نشره م. ج. موليز ١٨٦٠، صفحة ٢١٧ والتي تليها.
٧٧ - تيكفور: «تاريخ الادب الاسباني» المجلد الرابع. مدريد ١٨٥٦، صفحة ٢٧٩ والتي تليها.

٧٨ ـ تيكفور: العمل السابق. المجلد الرابع. مدريد ١٨٥٦، صفحة ٢٧٩ والتي تليها.
٧٩ ـ أغاني الحاج بدي مونكون، رحلة الى مكة في القرن الرابع عشر، سرقسطه ١٨٩٧.
٨٠ ـ بيدال: أشعار الفونسو دي بيانا، مدريد ١٨٥١، صفحة ٥٦٥
٨١ ـ مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٩٦٥٣ صفحة ٩
٨٢ ـ مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٦٦
٨٣ ـ مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد، رقم ٢٣٤١
٨٤ ـ مكتبة الدراسات العربية. رقم ١٠٢
٨٥ ـ «استاذ اندلس» للقديس خوان دي لاكروث في مجلة «الاندلس» المجلد ١٠٠، ١٩٣٣، صفحات ٧ ـ ٧٩
٨٦ ـ طليطلة ١٩٧٠.
٨٧ ـ انظر البارو جاليس دي فوينتيس: الملحمة العربية والملحمة القشتالية.
٨٨ ـ انظر البارو جاليس دي فوينتيس. المصدر السابق.